

سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية مكية كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية، هي ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ ذكره الماوردي. وقال المهدي والنحاس عن ابن عباس: إنها نزلت في عمر رضي الله عنه، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة. فأراد أن يطش به، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] ثم نسخت (١) بقوله ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف. وهي سبع وثلاثون آية. وقيل ست.

﴿حَمْرٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿حَمْرٌ﴾ مبتدأ و﴿تَنْزِيلُ﴾ خبره. وقال بعضهم: ﴿حَمْرٌ﴾ اسم السورة. و﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ مبتدأ. وخبره ﴿مِنَ اللَّهِ﴾. و﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن. ﴿الْعَزِيزِ﴾ المنع ﴿الْحَكِيمِ﴾ في فعله وقد تقدم جميعه.

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَأَخْتَلَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي في خلقهما ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزقٍ يعني المطر. ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تقدم جميعه مستوفى في «البقرة» وغيرها. وقراءة العامة وما يبت من دابة آيات ﴿وتصريف الرياح آيات﴾ بالرفع فيهما (٢). وقرأ حمزة والكسائي بكسر التاء فيهما. ولا خلاف في الأول أنه بالنصب على اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرها ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾. ووجه الكسر في «آيات» الثاني العطف على ما عملت فيه؛ التقدير: إن في خلقكم وما يبت من دابة آيات. فأما الثالث فقيل: إن وجه النصب فيه تكرير ﴿آيات﴾ لما طال الكلام؛ كما تقول: ضرب زيداً زيداً.

(١) لا يوجد في الحقيقة نسخ هنا، والآية محكمة، لأنها نزلت على سبب وهو أنهم نزلوا في غزاة بني المصطلق على بشر، فأرسل عبد الله بن أبي غلامه ليستقي الماء، فأبطأ عليه، فلما أتى قال: ما حبسك؟ قال: غلام عمر ما ترك أحداً يستقي حتى ملا قرب النبي ﷺ وقرب أبي بكر، وملا لولاه، فقال عبد الله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك، فبلغ قوله عمر: فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه، فنزلت هذه الآية أسباب النزول (ص ٢٨٢) للواحد.

(٢) قراءة متواترة: تقرب النشر (ص ١٧٣).

وقيل: إنه على الحمل على ما عملت فيه ﴿إِنَّ﴾ على تقدير حذف ﴿فِي﴾؛ التقدير: وفي اختلاف الليل والنهار آيات. فحذفت ﴿فِي﴾ لتقدم ذكرها. وأنشد سيبويه في الحذف:

أكل امرئ تحسبين امرأ ناراً توقد بالليل ناراً

فحذف «كل» المضاف إلى نار المجرورة لتقدم ذكرها. وقيل: هو من باب العطف على عاملين.

ولم يجزه سيبويه، وأجازه الأخفش وجماعة من الكوفيين؛ فعطف ﴿وَإِخْتِلَافٍ﴾ على قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ﴾ فيحتاج إلى العطف على عاملين، والعطف على عاملين قبيح من أجل أن حروف العطف تنوب مناب العامل، فلم تقو أن تنوب مناب عاملين مختلفين؛ إذ لو ناب مناب رافع وناصب لكان رافعا ناصبا في حال. وأما قراءة الرفع فحملا على موضع ﴿إِنَّ﴾ مع ما عملت فيه. وقد ألزم النحويون في ذلك أيضا العطف على عاملين؛ لأنه عطف ﴿وَإِخْتِلَافٍ﴾ على ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾، وعطف ﴿آيَاتٌ﴾ على موضع ﴿آيَاتٌ﴾ الأول، ولكنه يقدر على تكرير ﴿فِي﴾. ويجوز أن يرفع على القطع مما قبله فيرفع بالابتداء، وما قبله خبره، ويكون عطف جملة على جملة. وحكى الفراء رفع ﴿وَإِخْتِلَافٍ﴾ و﴿آيَاتٌ﴾ جميعا، وجعل الاختلاف هو الآيات.

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ قُبَايَ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيَّاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ أي هذه آيات الله أي حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته. ﴿ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالصدق الذي لا باطل ولا كذب فيه. وقرئ «تتلوها» بالياء. ﴿ قُبَايَ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ ﴾ أي بعد حديث الله وقيل: بعد قرآنه ﴿ وَأَيَّاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقراءة العامة بالياء على الخبر. وقرأ ابن محيصن وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي «تؤمنون» بالياء على الخطاب (١).

﴿ وَيَلِكُلْ أَفَاكُ أَيْمِرٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ أَيْمِرٍ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَيَلِكُلْ أَفَاكُ أَيْمِرٍ ﴾ ﴿ وَيَلٌ ﴾ واد في جهنم. توعد من ترك الاستدلال بآياته. والافاك: الكذاب. والإفك الكذب. ﴿ أَيْمِرٍ ﴾ أي مرتكب للإثم. والمراد فيما روي: النضر بن الحارث وعن ابن عباس أنه الحارث بن كلدة (٢). وحكى الثعلبي أنه أبو جهل وأصحابه. ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ﴾ يعني آيات القرآن. ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي يتمادى على كفره متعظما في نفسه عن الانقياد مأخوذ من صر الصرة إذا شدها. قال معناه ابن عباس وغيره. وقيل: أصله من إصرار الحمار على العانة وهو أن ينحني عليها صارا أذنيه. و«أن» من «كأن» مخففة من الثقيلة؛ كأنه لم يسمعها، والضمير ضمير الشأن؛ كما في قوله:

كَأَن ظَنِيَّةٌ تَعْطُو إِلَى نَاضِرِ السَّلْمِ

ومحل الجملة النصب، أي يصير مثل غير السامع. وقد تقدم في أول «لقمان» القول في هذه

الآية. وتقدم معنى ﴿ فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ أَيْمِرٍ ﴾ في «البقرة».

(١) قراءة متواترة: تقرب النشر (ص ١٧٢).

(٢) ضعيف: قال ابن الجوزي (٥ / ٣٥٣) في زاد المسير: «ورواه أبو صالح، عن ابن عباس».

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٥﴾ مِنْ قَوْلِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُقْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٥٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ نحو قوله في الزقوم: إنه الزبد والتمر وقوله في خزنة جهنم: إن كانوا تسعة عشر فانا القاهم وحدي. ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مذل مخز. ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمَ ﴾ أي من وراء ما هم فيه من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق جهنم. وقال ابن عباس: ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمَ ﴾ أي أمامهم، نظيره ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمَ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٦] أي من أمامه. قال: أليس ورائي إن تراخت منيتي أدب مع الولدان أرحف كالنسر ﴿ وَلَا يُقْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا ﴾ أي من المال والولد؛ نظيره: ﴿ لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٠] أي من المال والولد. ﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعني الاصنام. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي دائم مؤلم.

﴿ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ ابتداء وخبر؛ يعني القرآن. وقال ابن عباس: يعني كل ما جاء به محمد ﷺ. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا بِهِمْ ﴾ أي جحدوا دلائله. ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ ﴾ الرجز العذاب؛ أي لهم عذاب من عذاب اليم دليله قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ٥٩] أي عذابا. وقيل: الرجز القدر مثل الرجز؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٦] أي لهم عذاب من تجمع الشراب القدر. وضم الراء من الرجز ابن محيصر حيث وقع. وقرأ ابن كثير وابن محيصر وحفص ﴿ أَلِيمٍ ﴾ بالرفع؛ على معنى لهم عذاب اليم من رجز. الباقون بالخفض (١) نعتا للرجز.

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِتَأْكُلُوا مِمَّا كَفَرْتُمْ ﴿٥٨﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم. ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ يعني أن ذلك فعله وخلقه وإحسان منه وإنعام. وقرأ ابن عباس والجدري وغيرهما «جميعاً منه» بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء، منصوبا على المصدر. قال أبو عمرو: وكذلك سمعت مسلمة يقرؤها «منه» أي تفضلا وكرما. وعن مسلمة بن محارب أيضا «جميعاً منه» على إضافة المن إلى هاء الكناية. وهو عند أبي حاتم خبر ابتداء محذوف، أي ذلك، أو هو منه. وقراءة الجماعة ظاهرة. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ قُلِ الَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ جزم على جواب ﴿قُلْ﴾ تشبيها بالشرط والجزاء كقولك: قم تصب خيرا. وقيل: هو على حذف اللام. وقيل: على معنى قل لهم اغفروا يغفروا؛ فهو جواب أمر محذوف دل الكلام عليه؛ قاله علي بن عيسى واختاره ابن العربي. ونزلت الآية بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهم أن يبطش به. قال ابن العربي: وهذا لم يصح. وذكر الواحدى والقشيري وغيرهما عن ابن عباس أن الآية نزلت في عمر مع عبدالله بن أبي في غزوة بني المصطلق، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها «المريسيح» فأرسل عبدالله غلامه ليستقي، وأبطأ عليه فقال: ما حبسك؟ قال: غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر، فما ترك أحدا يستقي حتى ملأ قرب النبي ﷺ وقرب أبي بكر، وملأ لمولاه. فقال عبدالله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك. فبلغ عمر رضي الله عنه قوله، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله؛ فأنزل الله هذه الآية. هذه رواية عطاء عن ابن عباس (١). وروى عنه ميمون بن مهران قال: لما نزلت ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال يهودي بالمدينة يقال له فنحاص: احتاج رب محمد! قال: فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه؛ فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول لك: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، واعلم أن عمر قد اشتمل على سيفه وخرج في طلب اليهودي، فبعث رسول الله ﷺ في طلبه، فلما جاء قال: «يا عمر، ضع سيفك» قال: يا رسول الله، صدقت. أشهد أنك أرسلت بالحق. قال: فإن ربك يقول: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ قال: لا جرم! والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي (٢).

قلت: وما ذكره المهدي والنحاس فهو رواية الضحاک عن ابن عباس، وهو قول القرظي والسدي، وعليه يتوجه النسخ في الآية. وعلى أن الآية نزلت بالمدينة أو في غزوة بني المصطلق فليست بمنسوخة. ومعنى ﴿يَغْفِرُوا﴾ يعفوا ويتجاوزوا. ومعنى ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي لا يرجون ثوابه. وقيل: أي لا يخافون بأس الله ونقمه. وقيل: الرجاء بمعنى الخوف؛ كقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي لا تخافون له عظمة. والمعنى: لا تخشون مثل عذاب الأمم الخالية. والأيام يعبر بها عن الوقائع. وقيل: لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه. وقيل: المعنى لا يخافون البعث. ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قراءة العامة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ بالياء على معنى ليجزي الله. وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر «لنجزى» بالنون (٣) على التعظيم. وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة «لِيَجْزِيَ» بياء مضمومة (٤) وفتح الزاي على الفعل المجهول، ﴿قَوْمًا﴾ بالنصب. قال أبو عمرو: وهذا لحن ظاهر. وقال الكسائي: معناه ليجزي الجزاء قوما، نظيره ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] على قراءة ابن عامر وأبي بكر في سورة «الأنبياء». قال الشاعر:

ولو وكذت قفيرة جروا كذب
لسبب بذلك الجرو الكلابا
أي لسبب السب.

(١) كذا عند الواحدى من رواية عطاء (ص ٣١٩) في أسباب النزول، وكذا رواه ابن الجوزي (٥ / ٣٥٥) في زاد المسير، ولم أهد إليه مسنداً.

(٢) ضيفه جلا: الواحدى (ص ٣١٩) وفيه الإشكالي محمد بن زياد وهو متروك.

(٣، ٤) لسان العرب: ١٧٣. تقريب النشر (ص ١٧٣).

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلْتَنَسِهٖ - وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿١﴾

تقدم .

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَوَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة ﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ الحكم: الفهم في الكتاب. وقيل: الحكم على الناس والقضاء و﴿ النُّبُوَّةَ ﴾ يعني الأنبياء من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام. ﴿ وَوَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي الحلال من الاقوات والثمار والاطعمة التي كانت بالشام. وقيل: يعني المن والسلوى في التيه. ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾ أي على عالمي زمانهم. ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ قال ابن عباس: يعني أمر النبي ﷺ، وشواهد نبوته بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب، وينصره أهل يثرب. وقيل: بينات الأمر شرائع وإضحات في الحلال والحرام ومعجزات. ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ يريد يوشع بن نون؛ فأمن بعضهم وكفر بعضهم؛ حكاة النقاش. وقيل: ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ نبوة النبي ﷺ فاختلغوا فيها. ﴿ بَعِيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أي حسدا على النبي ﷺ قال معناه الضحاك. قيل: معنى ﴿ بَعِيًا ﴾ أي بغى بعضهم على بعض يطلب الفضل والرياسة، وقتلوا الأنبياء؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد، قد جاءتهم البيئات ولكن أعرضوا عنها للمنافسة في الرياسة ^(١). ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي يحكم ويفصل ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ الشريعة في اللغة: المذهب والملة. ويقال لمشرة الماء - وهي مورد الشاربة: شريعة. ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد. فالشريعة: ما شرع الله لعباده من الدين؛ والجمع الشرائع. والشرائع في الدين: المذاهب التي شرعها الله لخلقهم. فمعنى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ أي على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق. وقال ابن عباس: ﴿ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ ﴾ أي على هدى من الأمر ^(٢). قتادة: الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض ^(٣). مقاتل: البينة؛ لأنها طريق إلى الحق. الكلبي: السنة؛ لأنه يستن بطريقة من قبله من الأنبياء. ابن زيد: الدين؛ لأنه طريق النجاة ^(٤). قال ابن العربي: والأمر يرد في اللغة بمعنيين: أحدهما: بمعنى الشأن كقوله: ﴿ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود: ٩٧]. والثاني: أحد

(١) انظر: زاد المسير (٥/ ٣٥٥) لابن الجوزي، والأقوال فيه غير مستدة.

(٢) ضعيف: الطبري (٢٥/ ١٥١) في تفسيره من طريق العوفيين.

(٣، ٤) صحيحان إلى قتادة وابن زيد: الطبري (٢٥/ ١٥١، ١٥٢) في تفسيره.

أقسام الكلام الذي يقابله الذي يقابله النهي. وكلاهما يصح أن يكون مراداً هاهنا؛ وتقديره: ثم جعلناك على طريقة من الدين وهي ملة الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنما خالف بينهما في الفروع حسبما علمه سبحانه.

الثانية: قال ابن العربي: ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا؛ لأن السله تعالى أفرد النبي ﷺ وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر أن النبي ﷺ وأمته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي ﷺ عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا؟ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني المشركين. وقال ابن عباس: قريظة والنضير. وعنه: نزلت لما دعت قريش إلى دين آبائه (١).

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئاً. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي أصدقاء وأنصار وأحباب. قال ابن عباس: يريد أن المنافقين أولياء اليهود. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ناصرهم ومعينهم. والمتقون هنا: الذين اتقوا الشرك والمعاصي.

﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ﴾ ابتداء وخبر؛ أي هذا الذي أنزلت عليك براهين ودلائل ومعالم للناس في الحدود والأحكام. وقرئ «هذه بصائر» أي هذه الآيات. ﴿وَهُدًى﴾ أي رشد وطريق يؤدي إلى الجنة لمن أخذ به. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ في الآخرة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: اكتسبوا. والاجتراح: الاكتساب؛ ومنه الجوارح، وقد تقدم في «المائدة». ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال الكلبي: ﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا﴾ عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة. و﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ علي وحزمة وعبيدة بن الحارث - رضي الله عنهم - حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوه. وقيل: نزلت في قوم من المشركين قالوا: إنهم يعطون في الآخرة خيراً مما يعطاه المؤمن؛ كما أخبر الرب عنهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ رَبِّي إِذْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]. وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ استفهام معطوف معناه الإنكار. وأهل العربية

(١) ضعيف: رواه ابن الجوزي (٥/ ٣٥٥) في زاد المسير، وقال: «قاله أبو صالح، عن ابن عباس».

يجوزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطا للخطاب . وقوم يقولون: فيه إضمار؛ أي والله ولي المتقين أفيعلم المشركون ذلك أم حسبوا أنا نسوي بينهم . وقيل : هي ﴿أَمْ﴾ المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان . وقراءة العامة «سواء» بالرفع على أنه خبر ابتداء مقدم ، أي محياهم ومماتهم سواء (١) . والضمير في ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتَهُمْ﴾ يعود على الكفار، أي محياهم محيا سوء ومماتهم كذلك . وقرأ حمزة والكسائي والأعمش ﴿سواء﴾ بالنصب، واختاره أبو عبيد قال: معناه نجعلهم سواء . وقرأ الأعمش أيضا وعيسى ابن عمر ﴿وَمَمَاتَهُمْ﴾ بالنصب؛ على معنى سواء في محياهم ومماتهم؛ فلما أسقط الخافض انتصب . ويجوز أن يكون بدلا من الهاء والميم في ﴿نَجْعَلُهُمْ﴾؛ المعنى: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا الذين آمنوا ومماتهم . ويجوز أن يكون الضمير في ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتَهُمْ﴾ للكفار والمؤمنين جميعا . قال مجاهد : المؤمن يموت مؤمنا ويبعث مؤمنا ، والكافر يموت كافرا ويبعث كافرا (٢) . وذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحاح عن مسروق قال: قال رجل من أهل مكة: هذا مقام تميم الداري، لقد رأيت ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبيكي ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية كلها .

وقال بشير: بت عند الربيع بن خثيم ذات ليلة فقام يصلي فمر بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يعدها بكاء شديد . وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيرا ما رأيت الفضيل بن عياض يردد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعري، من أي الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمى مبةكة العابدين لأنها محكمة .

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتَجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣)

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالامر الحق . ﴿وَلَتَجْزَىٰ﴾ أي ولكي تجزى . ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي في الآخرة . ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَاقِبَةِ عَمَلِهِ وَجْعَلَ عَلَىٰ بَعْرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَدَدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٤)

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئا إلا ركه (٣) .

وقال عكرمة: أفرايت من جعل إلهه الذي يعبد ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن شيئا وهويه اتخذها إلهها (٤) . قال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر؛ فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٧٣) .

(٢) صحيح إلى مجاهد الطبري (٢٥ / ١٥٤) في تفسيره .

(٣) الإسناد مقطوع إلى ابن عباس ، صحيح إلى قتادة : وانظر: فتح القدير (٦ / ٤٤٣) للشوكاني .

(٤) لم أهدت إليه مسندا .

وعبد الآخر^(١). وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين، لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه^(٢). وقال سفيان بن عيينة: إنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة. وقيل: المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبوده تعجبيا لذوي العقول من هذا الجهل. وقال الحسن بن الفضل: في هذه الآية تقديم وتأخير، مجازة: أفرأيت من اتخذ هواه إلهه. وقال الشعبي: إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه في النار^(٣). وقال ابن عباس: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه، قال الله تعالى ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصاص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جثت به»^(٤). وقال أبو أمامة: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى»^(٥). وقال شدداد بن أوس عن النبي ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»^(٦). وقال عليه السلام: «إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة»^(٧). وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه. والمنجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب»^(٨). وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه؛ فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعا لعلمه فيومه يوم صالح. وقال الأصمعي سمعت رجلا يقول:

إن الهوانَ هو الهوى قلبُ اسمه فإذا هويتَ فقد لقيتَ هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال: هوان سرقته نونه، فأخذه شاعر فنظمه وقال:

نُونُ الهوانِ مِنَ الهوى مسروقةٌ فإذا هويتَ فقد لقيتَ هوانا

(١) حسن: الطبري في تفسيره (٢٥/ ١٥٥)، والبغوي (٧/ ٢٤٥) في تفسيره.

(٢) معضل: ابن الجوزي (٥/ ٣٥٦) في زاد المسير.

(٣) ذكره البغوي (٧/ ٢٤٥) في تفسيره.

(٤) قال النووي: «سنده صحيح»، كذا في تخريج الحديث الحادي والأربعين من الأربعين النووية.

قلت: وانظر السنة (١/ ١٣) لابن أبي عاصم.

(٥) موضوع: وهو بغير هذا اللفظ، وذكره الهيثمي (١/ ١١٤) في المجمع وعزاه للطبراني عن أبي أمامة، وفيه الحسن بن دينار وهو متروك الحديث.

(٦) ضعيف: الترمذي (٢٤٥٩) في صفة القيامة، وابن ماجه (٤٢٦٠) في الزهد، وضعفه الألباني هناك.

(٧) ضعيف: أبو داود (٤٣٤١) في الملاحم، والترمذي (٣٠٥٨) في الفتن وضعفه الألباني هناك، عن أبي ثعلبة الخشني - رضي الله عنه.

(٨) حسن: حسنه الألباني (٣٠٤٥) في صحيح الجامع.

وقال آخر:

إِنَّ الْهَوَى لَهَوَّ الْهَوَانَ بَعِينَهُ فإذا هويتَ فقد كسبتَ هَوَانًا
وإذا هويتَ فقد تعبدك الهوى فاخضعُ لحبك كأننا من كانا

ولعبدالله بن المبارك:

وَمِنَ الْبَلَايَا لِلْبَلَاءِ عِلْمَةٌ ألا يُرى لك عن هواك نُزُوعُ
العبدُ عبد النفسِ في شهواتها والحرُّ يَشْبَعُ تَارَةً وَيَجُوعُ

ولابن دريد:

إذا طالبتك النفسُ يوماً بشهوه وكان إليها والخلافُ طَسْرِيْقُ
فَدَعَهَا وَخَالَفَ مَا هَوَيْتَ فَإِنَّمَا هَوَاكُ عَدُوٌّ وَالْخِلَافُ صَدِيقُ

ولأبي عبيد الطوسي:

والنفس إن أعطيتها منهاها فأغرة نحو هواها فأها

وقال أحمد بن أبي الخوارى: مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له: أنت عليل. قال نعم.

قلت: مذ كم؟ قال: مذ عرفت نفسي! قلت فتداوى؟ قال: قد أعياني الدواء وقد عزمت على الكي.

قلت وما الكي؟ قال: مخالفة الهوى. وقال سهل بن عبدالله التستري: هواك داؤك. فإن خالفته

فدواؤك. وقال وهب: إذا شككت في أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته.

وللعلماء في هذا الباب في ذم الهوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيه كفاية منه؛ وحسبك

بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على علم قد علمه منه. وقيل: أضله عن الثواب على

علم منه بأنه لا يستحقه. وقال ابن عباس: أي على علم قد سبق عنده أنه سيضل^(١). مقاتل: على

علم منه أنه ضال؛ والمعنى متقارب. وقيل: على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر. ثم قيل:

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يجوز أن يكون حالا من الفاعل؛ المعنى: أضله على علم منه به، أي أضله عالما بأنه من

أهل الضلال في سابق علمه. ويجوز أن يكون حالا من المفعول؛ فيكون المعنى: أضله في حال علم

الكافر بأنه ضال. ﴿وَحَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ أي طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، وطبع على قلبه

حتى لا يفقه الهدى. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي غطاء حتى لا يبصر الرشد. وقرأ حمزه والكسائي

«غَشْوَةً» بفتح الغين من غير ألف^(٢) وقال الشاعر:

أما والذي أنا عبدٌ له يمينا ومالك أبدي اليمينا

لئن كنت البستي غشوة لقد كنت أصفيتك الودَّ حينا

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي من بعد أن أضله. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما

يشاء.

وهذه الآية ترد على القدرية والإمامية ومن سلك سبيلهم في الاعتقاد؛ إذ هي مصرحة بمنعهم

(١) منقطع : وقد سبق .

(٢) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص ١٧٣) .

من الهداية. ثم قيل ﴿وَحْتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ إنه خارج مخرج الخبث عن أحوالهم. وقيل: إنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم؛ كما تقدم في أول «البقرة». وحكى ابن جريج أنها نزلت في الحارث بن قيس من الغياطة (١). وحكى النقاش أنها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ، فقال أبو جهل: والله إنني لأعلم إنه لصادق! فقال له مه! وما ذلك على ذلك؟! قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين؛ فلما تم عقله وكمل رشده، نسميه الكذاب الخائن!! والله إنني لأعلم إنه لصادق! قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللوات والعزى إن اتبعته أبدا. فنزلت: ﴿وَحْتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾.

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ هذا إنكار منهم للأخرة وتكذيب للبعث وإبطال للجزاء. ومعنى: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي نموت نحن ونحيا أولادنا؛ قال الكلبي. وقرئ «ونحيا» بضم النون. وقيل: يموت بعضنا ويحيا بعضنا. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي نحيا ونموت؛ وهي قراءة ابن مسعود. ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ قال مجاهد: يعني السنين والأيام. وقال قتادة: إلا العمر، والمعنى واحد. وقرئ «إلا دهرٌ يمر». وقال ابن عيينة: كان أهل الجاهلية يقولون: الدهر هو الذي يهلكنا وهو الذي يحيينا ويميتنا؛ فنزلت هذه الآية. وقال قطرب: وما يهلكنا إلا الموت؛ وأنشد قول أبي ذؤيب:

أَمِ الْمُنُونِ وَرِييَهَا تَتَوَجَّعُ وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمَعْتَبٍ مَنْ يَجَزَعُ

وقال عكرمة: أي وما يهلكنا إلا الله. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون ما يهلكنا إلا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا فيسبون الدهر قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» (٢).

قلت: قوله «قال الله» إلى آخره نص البخاري ولفظه. وخرجه مسلم أيضا وأبو داود. وفي «الموطأ» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر» (٣). وقد استدلل بهذا الحديث من قال: إن الدهر من أسماء الله. وقال: من لم يجعله من العلماء اسما إنما خرج ردا على العرب في جاهليتها؛ فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم في هذه الآية؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضيم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل

(١) الغياطة: لقب لبني قيس بن عدي، والغيطول: الظلمة المتركمة واختلاط الأصوات والظلمة. اللسان «غطل».

(٢) الأصح وقفه كما فعل الشوكاني (٦/ ٤٤٣) في فتح القدير، وقد ذكره الطبري (٢٥/ ١٥٧) في تفسيره، وذكره ابن كثير (٧/ ٢٠٨)، وقال: «سياقه غريب جدا».

(٣) متفق عليه: البخاري (٦١٨٢) في الأدب، ومسلم (٢٤٤٦) في الألفاظ من الأدب.

لهم على ذلك: لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر؛ أي إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي تضيفونها إلى الدهر فيرجع السب إليه سبحانه؛ فنهوا عن ذلك. ودل على صحة هذا ما ذكره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم...» (١) الحديث. ولقد أحسن من قال، وهو أبو علي الثقفى:

يا عاتبَ الدهرِ إذا نابَهُ	لا تَلْمِ الدَّهْرَ على غَدْرِهِ
الدهرُ مأمورٌ له أمرٌ	ويتهيءُ الدهرُ إلى أمرِهِ
كم كافرٌ أمواله جَمَّةٌ	تزدادُ أضعافاً على كُفْرِهِ
ومؤمنٌ ليس له درهمٌ	يزدادُ إيماناً على قُفْرِهِ

وروي أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال: إياك يا بني وذكّر الدهر وأنشد:

فما الدَّهْرُ بالجاني لشيءٍ لحِينَةٍ	ولا جالبَ البُلُوَى فلا تشتم الدَّهْرَ
ولكن متى ما يبعثُ اللهُ باعثاً	على مَعشَرٍ يجعلُ مياسيرهم عُسراً

وقال أبو عبيد: ناظرت بعض الملحدة فقال: ألا تراه يقول ﴿فإن الله هو الدهر﴾؟ فقلت: وهل كان أحد يسب الله في آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى:

إن محلاً وإن مُرْتَحِلاً	وإن في السَّفرِ إذ مَضَوْا مَهَلاً
استأثر الله بالوفاء وبالعد	ل وولّى الملاممةَ الرِّجلاً

قال أبو عبيد: ومن شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصائب والنوائب؛ حتى ذكروه في أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه. قال عمرو بن قميئة:

رمتي بناتُ الدَّهْرِ من حيثُ لا أرى	فكيف بمن يُرمى وليس برامٍ
فلو أنها نبلٌ إذاً لأنقبتها	ولكنني أرمتي بغير سَهَامٍ
على الراحتين مرةً وعلى العَصَا	أنوءُ ثلاثاً بعدهن قِيامي

ومثله كثير في الشعر. ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه، والله سبحانه الفاعل لا رب سواه. ﴿وما لهم بذلك من علم﴾ أي علم. و﴿من﴾ زائدة؛ أي قالوا ما قالوا شاكين. ﴿إن هم إلا يظنون﴾ أي ما هم إلا يتكلمون بالظن. وكان المشركون أصنافاً، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يشب الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفاً من المسلمين؛ فيتأولون ويرون القيامة موت البدن، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم؛ فشرّ هؤلاء أضرّ من شر جميع الكفار؛ لأن هؤلاء يلبسون على الحق، ويغتر بتبليسهم الظاهر. والمشرك المجاهر بشركه يحزنه المسلم. وقيل: نموت ونحيا آثارنا؛ فهذه حياة الذكر. وقيل: أشاروا إلى التناسخ؛ أي يموت الرجل فتجعل روحه في موات فتحيا به.

(١) متفق عليه: البخاري (٤٨٢٦) في التفسير، ومسلم (٢٢٤٦) في الألفاظ من الأدب.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٥﴾
 قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم مِّنْ بَيْنِكُمْ فَمَنْ يَتَخَفَكُم إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا تقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة في جواز البعث لم يكن ثم دفع ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ خبر كان والاسم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا﴾ الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون، فرد الله عليهم بقوله ﴿قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم﴾ يعني بعد كونكم نطفاً أمواتاً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ كما أحياكم في الدنيا. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم. الزمخشري: فإن قلت لم سمي قولهم حجة وليس بحجة؟ قلت: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته، وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم. أو لأنه في حسابهم وتقديرهم حجة. أو لأنه في أسلوب قوله:

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. والمراد نفي أن تكون لهم حجة البتة. فإن قلت: كيف وقع قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم﴾ جواب ﴿اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ قلت: لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مَبْكُتٍ ألزموا ما هم مقرون به من أن الله عز وجل وهو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق وهو جمعهم يوم القيامة، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ بِخَسْرٍ الْمُبْطِلُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكا. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ بِخَسْرٍ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿يَوْمٌ﴾ الأول منصوب بـ ﴿يَخْسِرُ﴾ و﴿يَوْمِئِدُ﴾ تكرير للتأكيد أو بدل. وقيل: إن التقدير وله الملك يوم تقوم الساعة. والعامل في ﴿يَوْمِئِدُ﴾ ﴿يَخْسِرُ﴾، ومفعول ﴿يَخْسِرُ﴾ محذوف، والمعنى يخسرون منازلهم في الجنة.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي من هول ذلك اليوم. والأمة هنا: أهل كل ملة. وفي الجاثية تأويلات خمسة: الأول: قال مجاهد: (١) مستوفزة. وقال سفيان: المستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبته وأطراف أنامله. الضحاك: ذلك عند الحساب. الثاني: مجتمعة قاله ابن عباس. الفراء: المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين. الثالث: متميزة، قتاله عكرمة. الرابع: خاضعة بلغة قريش؛ قاله مؤرج. الخامس: باركة على الركب قاله الحسن. والجنو: الجلوس على الركب. جثا

(١) ذكره ابن الجوزي (٥/ ٣٥٦) في زاد المسير غير مسند، وهو صحيح إلى مجاهد، وابن زيد، كما عند الطبري (٢٥/ ١٥٩) في تفسيره لم أجده مسنداً إلى ابن عباس - رضي الله عنهما وأثر الضحاك منقطع عند الطبري.

على ركبتيه يجثو ويسجني جثواً وجُثياً، على فعول منها، وقد مضى في «مریم». وأصل الجثوة: الجماعة من كل شيء. قال طرفه يصف قبرين:

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح مُضدِّ

ثم قيل: هو خاص بالكفار، قاله يحيى بن سلام. وقيل: إنه عام للمؤمن والكافر انتظارا للحساب. وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن عبدالله بن باباه أن النبي ﷺ قال: «كأنني أراكم بالكوم جاثين دون جهنم»^(١) ذكره الماوردي. وقال سلمان: إن في يوم القيامة ساعة هي عشر سنين يخثر الناس فيها جثاة على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادي «لا أسألك اليوم إلا نفسي»^(٢). «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا» قال يحيى بن سلام: إلى حسابها. وقيل: إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر؛ قاله مقاتل. وهو معنى قول مجاهد. وقيل: «كِتَابِهَا» ما كتبت الملائكة عليها. وقيل كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه. وقيل: الكتاب ها هنا اللوح المحفوظ. وقرأ يعقوب الحضرمي «كُلُّ» بالنصب على البدل من «كُلُّ» الأولى لما في الثانية من الإيضاح الذي ليس في الأولى، إذ ليس في جثوها شيء من حال شرح الجثو كما في الثانية من ذكر السبب الداعي إليه وهو استدعاؤها إلى كتابها. وقيل: انتصب بإعمال «ترى» مضمرا. والرفع على الابتداء. «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» من خير أو شر.

﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ هَذَا كِتَابُنَا ﴾ قيل من قول الله لهم. وقيل من قول الملائكة. ﴿ يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أي يشهد. وهو استعارة يقال: نطق الكتاب بكذا أي بين. وقيل: إنهم يقرؤونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا، فكانه ينطق عليهم، دليله قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف: ٤٩]. وفي «المؤمنون» ﴿ وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٢] وقد تقدم. ﴿ يَنْطِقُ ﴾ في موضع الحال من الكتاب، أو من ذا، أو خبر ثانٍ لذا، أو يكون ﴿ كِتَابُنَا ﴾ بدلا من ﴿ هَذَا ﴾ و﴿ يَنْطِقُ ﴾ الخبر. ﴿ إِنْ كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي نأمر بنسخ ما كنتم تعملون. قال علي رضي الله عنه: إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم^(٣). وقال ابن عباس: إن الله وكل ملائكة مطهرين فينسخون من أم الكتاب في رمضان كل ما يكون من أعمال بني آدم فيعارضون حفظة الله على العباد كل خميس، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال العباد موافقا لما في كتابهم الذي استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيه ولا نقصان. قال ابن عباس: وهل يكون النسخ إلا من كتاب^(٤). الحسن: نستنسخ ما كتبه الحفظة على بني آدم، لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة

(١) ضعيف: للإرسال، فابن باباه تابعي جليل، وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٧٥٩) مرسلأ، وعزاه لسعيد بن منصور وعبد الله بن أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث.

(٢) ضعيف: وقد سبق.

(٣) سنده أحسبه حسنا كما عند الطبري (٢٥/ ١٦١) في تفسيره

(٤) ضعيف إلى ابن عباس: السابق (٢٥/ ١٦١).

صحائف الأعمال. وقيل: تحمل الحفظة كل يوم ما كتبوا على العبد، ثم إذا عادوا إلى مكانهم نسخ منه الحسنات والسيئات، ولا تحول المباحات إلى النسخة الثانية. وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عز وجل أمر بأن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب، ويسقط من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَمَا سَتَكْبَرُونَ ﴿٣٥﴾ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي الجنة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾. وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ﴿ أي فيقال لهم ذلك ﴾. وهو استهزام توبيخ. ﴿ فَمَا سَتَكْبَرُونَ ﴾ عن قبولها. ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي مشركين تكسبون المعاصي. يقال: فلان جرمية أهله إذا كان كاسبهم، فالمجرم من أكسب نفسه المعاصي. وقد قال الله تعالى ﴿ أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥] فالمجرم ضد المسلم فهو المذنب بالكفر إذا.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَقِيقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي البعث كائن. ﴿ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وقرأ حمزة «الساعة» بالنصب (١) عطفًا على ﴿ وَعَدَّ ﴾. الباقون بالرفع على الابتداء، أو العطف على موضع ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾. ولا يحسن على الضمير الذي في المصدر، لأنه غير مؤكد، والضمير المرفوع إنما يعطف عليه بغير تأكيد في الشعر. ﴿ قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ هل هي حق أم باطل. ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ تقديره عند المبرد: إن نحن إلا نظن ظنا. وقيل: التقدير: إن نظن إلا أنكم تظنون ظنا. وقيل: أي وقتلتم: إن نظن إلا ظنا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَقِيقِينَ ﴾ أن الساعة آتية.

﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا ﴾ أي ظهر لهم جزاء سيئات ما عملوا. ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أي نزل بهم وأحاط. ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ من عذاب الله.

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي نترككم في النار كما تركتم لقاء يومكم هذا أي تركتم العمل له. ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي مسكنكم ومستقركم. ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ من ينصركم.

﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ يعني القرآن. ﴿ هُزُوعًا ﴾ لعبا. ﴿ وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي خدعتكم بأباطيلها وزخارفها، فظننتم أن ليس ثم غيرها، وأن لا بعث. ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا ﴾ أي من النار. ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يسترضون. وقرأ حمزة والكسائي «فاليوم لا يخرجون» بفتح الياء وضم (١) الراء لقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [السجدة: ٢٠] الباقون بضم الياء وفتح الراء، لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ [فاطر: ٣٧] ونحوه.

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قرأ مجاهد وحميد وابن محيصن «رب السموات والأرض ورب العالمين» بالرفع فيها كلها على معنى هو رب. ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أي العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال. ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ والله أعلم.
ختم تفسير سورة الجاثية ، والله أعلم.